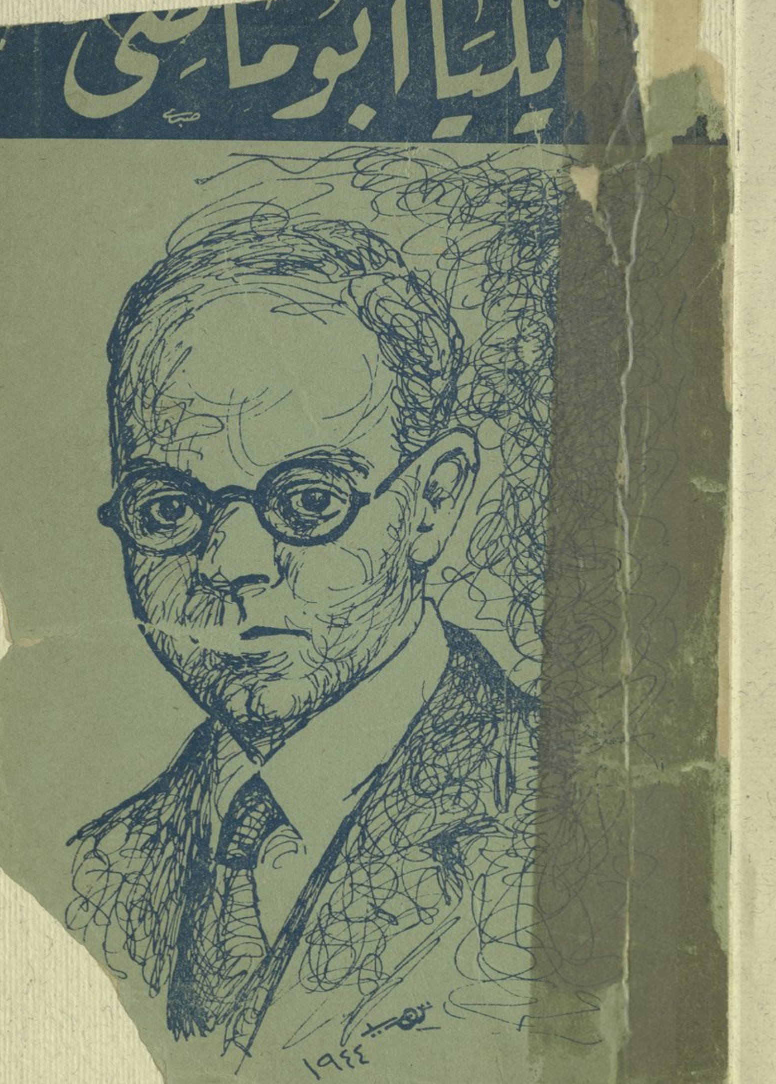

يليا ابو ماضي
١٩٤٤

سلسلة الشعراء المعاصرين

ايليا أبو ماضى

والحركة الادبيـة فى المهجر

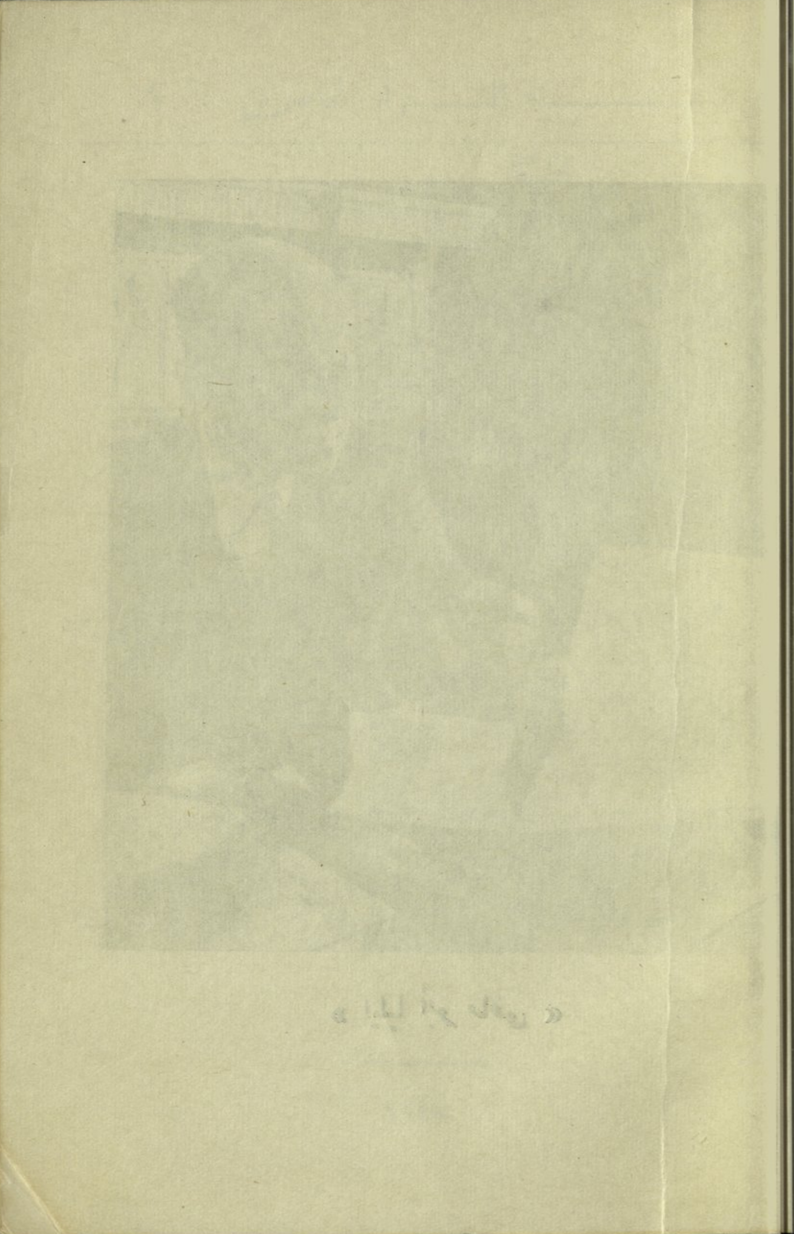


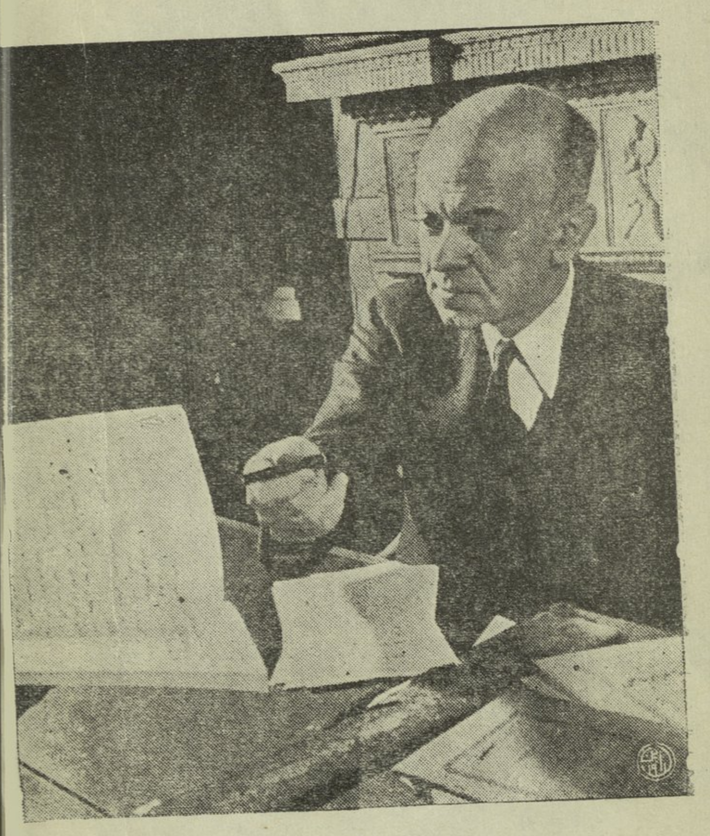
للمؤلف

مذاهب الأدب الغربى

المازنى شاعرا (من هذه السلسلة ـ قيد الطبع)







« ايليا أبو ماضي »

سلسلة الشعراء المعاصرين : ١

ايليا ابو ماضي

والحركة الأدبية في المهجر

بقلم فتحي صفوة

مدرس اللغة العربية فى كلية بغداد

بغداد

١٩٤٥

الطبعة الاولى ـ مايس ١٩٤٥

مطبعة الحكومة ـ بغداد

لم أكن أقدر يوم كتبت هذه الدراسة القصيرة أنها ستطلع على الناس كتابا ، وأنها ستكون الحلقة الاولى من سلسلة أفكر فى اصدارها منذ عهد بعيد ، وانما هى مقالة أردت ازجاءها تحية للأدب العربى وراء البحار بمناسبة ديوان جديد أصدره الشاعر المبدع ايليا أبو ماضى باسم (الخمائل) ، ولم يتسن لى الاطلاع عليه حتى كتابة هذه السطور .

ومجال القول فى أبى ماضى وشعره ذو سعة ، وفى دواوينه بغية من يبغى أدبا رفيعا وشعرا صادقا وروحا نقية ونفسا حرة . فارجو ألا يحمل المتأدبون

هذه الدراسة اكثر مما تحتمل ، فيطمعوا بدراسة قد
وفت شعر أبى ماضى ما يستحق من بحث ونقد
وتحليل ، وألمت بكل ما له ، وهو كثير ، وكل ما
عليه ، وهو غير قليل .

وإذا استطاع القارىء أن يتخذ من هذا الكتيب
دليلا متواضعا يحمله وهو يتجول فى رحاب دواوين
أبى ماضى ، فقد بلغت ما أريد وزيادة . وليس يغنى
هذا الكتاب عن شعر أبى ماضى ، الا بما يغنى تقليب
الدليل الصغير عن زيارة المعرض الفخم .

د . ف . ص

فهرس

مقدمة

للكاتب الكبير الاستاذ رفائيل بطي

عندما حملت الانباء الينا بشرى ميلاد ديوان جديد للشاعر العربى المحلق (أيليا أبو ماضى) باسم (الخمائل) رأيت من واجب (البلاد) الادبى اطراف القراء بلمعة من أدب ابى ماضى وشخصيته الشعرية ، فطلبت من الاديب (نجدة فتحى صفوة) كتابة مقال فى (أبى ماضى شاعرا) ، وهو معنى دائما بمتابعة الحركة الادبية فى الغرب وفى الشرق . وقد حسبت ان الكاتب سيكتب مقالا فى عمودين من الجريدة ينطوى على لمحة خاطفة من حفيف اجنحة الشـاعر وخفقـان فؤاده المنتفض ، وبصيص عينيه الحالمتين ، الا ان نجدة الذى قد التزم الجد مبكرا برغم كونه فى شوط الشباب الاول ، اهتم كل الاهتمام بأبى ماضى وشعره الحى ، وما أوحته مراحل حياته وعوالم بيئته ، فاذا به يحمل الى دراسة لحياة أبى ماضى وشعره تبلغ رسالة فى ابحاث الادب والنقد .

وحسناً فعل هذا الاديب المفتن ، فقد أعد مقالا أدبيا ضافيا للجريدة ، وكتيبا طريفا فى أدبنا الحديث ، وأدبنا الحديث لا يصيب من النقاد والباحثين والادباء الدارسين العناية اللازمة لانشغال القوم فى التنقيب عن آثار الاقدمين وكشف مخبآتهم والغوص على لآلئهم ، ودراسة منتجاتهم الفكرية ، والخروج الى الناس ببحوث وتآليف فى موضوعات الادباء القدامى • ومع ان الدرس الدقيق للادباء العرب من العابرين على الطريقة العلمية الحديثة لم يتجاوز ثلاثين سنة الا قليلا من عصرنا الحالى ، أرى أن محصول أقلام رجال العلم والادب من هذا النتاج أصبح شيئا له قيمته • والفضل كل الفضل للجامعة المصرية ولجامعة بيروت الامريكية ، ومن قبلهما لجماعة من كبار المستشرقين المعنيين بآداب العرب وتاريخهم فى توجيه الانظار الى هذه النواحى وتبيان النهج فى دراسة الآثار وتحليل الشخصيات • غير ان ما يؤخذ على هؤلاء الباحثين والمؤلفين انصرافهم الى الاقدمين فقط ، بمعنى التفاتهم الى الوراء وتركيز انفسهم فى لفتهم هذه وعدم احتفالهم بالمعاصرين واهل هذا الزمان من نوابغ الفكر واعيان البيان •

لهذا نجد الابحاث الموقوفة على الادباء العصريين من العرب قليلة جدا ، تبتدىء بدروس الاديبة النابغة (الآنسة مى) لباحثة

البادية) وقد اقترح عليها الموضوع العلامة الدكتور يعقوب صروف منشىء (المقتطف) وواكب عملها الفنى فى هذا الحقل الجديد ، حتى وضعت بين يدى القراء كتابا يفخر به الادباء لا الرجال وحدهم، بل النساء ايضا . ثم شفعت الكاتبة كتابها بدراستين اثنتين : احداهما مفصلة عن (عائشة عصمت تيمور) ، وقد ضمنتها المجلدات الثانى والستين والثالث والستين والرابع والستين من المقتطف ، وعسى ان ينتبه اليها ناشر نشيط فى حلبة التنافس الحالى فى سوق النشر فى مصر فيزفها سفرا قيما للقارئين ، ودراسة موجزة (لوردة اليازجى) فى محاضرة نفيسة ضمت فى كراسة أنيقة .

ولست أدرى لماذا لم يتابع (الدكتور محمد صبرى) الناقد الادبى فى جريدة (السياسة) المصرية يومئذ الكتابة فى هذا المضمار بعد ان نجح الى حد ما فى رسالتيه عن الشاعرين (محمود سامى البارودى) واسماعيل صبرى . وان كان قد سبق ميا وصبرى العالم الشيخ رشيد رضا صاحب (المنار) فى سفره الضافى الذيول عن معلمه المصلح (الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده) .

واذكر اجتماعا لى بصديقى الاستاذ الكبير انيس الخورى المقدسى : استاذ الادب العربى فى الجامعة الاميركية ببيروت فى مصيفه فى ظهور الشوير سنة ١٩٣٣ دار فيه الحديث ، وانا اتصفح بعض آثاره ودراساته الجليلة التى يعدها للطبع ، وما تشقق اليه الكلام من النقد الادبى ورغبة الطلاب من الشبان فى التأليف فيه والنظام الذى اختطه للدائرة العلمية فى جامعته من فرض تأليف أطروحة على كل طالب منه يريد ان ينصرط فى سلك المدرجين من هذا المعهد العظيم فى موضوع يتصل بتاريخ العرب وادبائهم ، فسألته لماذا يبقى الاتجاه منحصرا فى الماضى ورجاله ، ولا يتحول بعض الشىء الى بحث شخصيات المعاصرين وآثارهم ، فعاجلنى بالسؤال : أتعتقد ان بين المعاصرين كثيرين ممن تكون حياته وآثاره القلمية مادة تكفى فى تأليف كتاب ؟ فقلت هذا ما انا موقن به ، وذكرته بنخبة من أعلام النصف الثانى من القرن التاسع عشر والربع الاول من القرن العشرين بينهم جمال الدين الافغانى وبطرس البستانى ومحمد عبده وقاسم أمين ومحمود سامى البارودى وأبى الثناء الآلوسى وجرجى زيدان والدكتور شبلى شميل وفرح أنطون وولى الدين يكن والاب لويس شيخو اليسوعى وابراهيم اليازجى وجبران خليل جبران وشوقى وامثالهم . وانتهى بنا الحوار فى هذا الموضوع الى اقتناع

الاستاذ المقدسي بالفكرة • وكم سرني ان اقرأ بعد ذلك الصيف بحوثا لخريجي الجامعة تتناول اشخاصا حديثين كانت مادة اطروحاتهم في معهدهم العزيز بينها دراسة في ابراهيم الحوراني العالم الشاعر البيروتي والمعلم جرجس همام الاديب المؤلف اللبناني • وعلمت من الاستاذ جبرائيل جبور الاديب الناقد القدير وأحد زملاء الاستاذ المقدسي - وتلميذ سابق له - في الجامعة ، ان هناك رسائل عديدة للخريجين في دراسة جبران خليل جبران والريحاني وغيرهما لما تدخل المطبعة •

ان اهمالنا دراسة الادباء الحديثين ونقدهم لا يمكن ان يفسر الا بشيء من نزعتنا التقليدية وعامل نفسي من استخفافنا بمن يعيش معنا وبين ظهرانينا ، مع أننا نعظم من غاب عنا وأصبح بعيدا مغيبا في مجاهل التاريخ ، ولعل لتمسكنا بالقديم الى حد التقديس أحيانا وهو طبع تقليدي عندنا وعند غيرنا أثرا مما نحن بصدده • في حين ان كتابنا القديرين اذا ما تناولوا بالدرس اديبا من المحدثين قد يكون عشيرا أو صديقا للمؤلف يبلغون في النظر اليه وتحليله درجة الابداع ، كما وفق الاديب المفكر الكبير الاستاذ ميخائيل نعيمة في كتابه الثمين عن زميله النابغة الخالد جبران خليل جبران • فقد غنمت المكتبة العربية كتابا لا نغالي اذا قلنا انه يصح ان يوضع في مرتبة اصدق الكتب

المؤلفة فى حياة المفكرين والادباء العظـام من عابرين وغابرين فى اوربا وامريكا ، هذا الى معارضته بأحسن ما جـادت به أقلام مؤلفينا فى شخصيات تاريخنا الادبى القديم .

ويدخل فى هـذا النطـاق المذكرات والكتب الخاصـة والنظرات الصائبة التى تجلت فى الاثرين الغاليين اللذين زفهما الى القارئين الاديب الضليع الامير شكيب ارسـلان (شـوقى او صداقة اربعين سنة) و (رشيد رضا او اخاء أربعين عاما) .

ويسرنا ان تستولى الفكرة لمعالجة سير المعاصرين وآثارهم على بعض كتاب العرب وادبائهم فى السنوات الاخيرة ، فيوفقوا لطائفـة صالحة من الكتب الانتقـادية التحليليـة ، حتى لبعض الاعلام الاحياء ، ويجمل بى فى هـذا الموقف ان أشيد بتفوق ناقد أدبى فذ كان من سوء حظ العربيـة ان فجعت به وهو فى غضارة شبابه وفى تدفق نشاطه الذهنى ، وهو الدكتور اسماعيل احمد أدهم التركى الاصـل المصرى المولد والجنسـية (عضو اكاديمية العلوم الروسية ووكيل المعهد الروسـى للدراسـات الاسلامية واستاذ التاريخ الاسلامى والأدب العربى بكلية التاريخ التركية ومعهد الدراسات الأدبية فى أنقرة) الذى انتحر فى الاسكندرية غرقا فى البحر المتوسط سنة ١٩٤٠ . فقد هـدى

نبوغ هذا الاديب الشاب ـ وهو من هو فى تضلعه من العلوم والآداب الحديثة ـ الى قيمة النقد الادبى للرجال المعاصرين من العرب فتوفر على كتابة سلسلة من الدراسات تعد بحق فتحا فى ادبنا الحديث فى مقدمتها كتابه الثمين فى درس وتحليل « خليل مطران شاعر العربية الابداعى » وكتبه الاخرى فى أدب (الدكتور طه حسين) وفيلسوف العراق جميل صدقى الزهاوى (الزهاوى الشاعر) و (توفيق الحكيم الفنان الحائر) و(ميخائيل نعيمة) و(اسماعيل مظهر). هذا بجانب كتبه الاخرى فى الموضوعات التاريخية والعلمية بينها دراسته عن « عبدالحق حامد الشاعر التركى الأعظم » ، وهو موضوع أذيع المرة الاولى فى اللغة العربية .

وبديهى أن نظرى مركز فى هذه الكلمات فى ميدان النقد الادبى ، والا فقد ظفرت العربية فى هذا العهد بمؤلفات ضخمة سيكتب لها الخلود فى دراسة سير عظماء العصر من رجال النهضة الوطنية والسياسية نظير كتب المؤرخ القومى الكبير الاستاذ عبدالرحمن الرافعى بك المحامى وسكرتير الحزب الوطنى فى القاهرة فى (مصطفى كامل) زعيم الوطنية المصرية وخليفته (محمد فريد) ، وكتاب الأديب الكاتب الجليل الاستاذ عباس محمود العقاد فى (سعد زغلول) بطل الثورة المصرية. ومن

طرف العربية فى هذا الزمان الكتاب الذى الفه الريحـانى فى تحليل شخصية الملك المؤسس، وقائد النهضة العربية (فيصل الاول)

وهل نستطيع ان نعد الحركة الجـديدة هذه السنة فى التأليف فيما تناولته كتب (محمد عبـده) لمحمد صبيـح فى كتب الشهر و(مهـدى الله محمد احمد المهـدى) للاديب السودانى توفيق احمد البكرى و(قاسـم امين) للاستاذ احمـد خاكى فى اعلام الاسلام ، و (محمود تيمور رائد القصة العربية) لنزيه الحكيم فاتحة التفات جديد نحو هذه الناحية .

والغريب ان هـذه الظاهرة فى اغفال بحث الادب العربى العصرى والالحاف فى الاهتمام بالادب القديم قد سيطرت ليس على مؤلفى الشرق فحسب ، بل على المستعربين والمستشـرقين من علماء اوربا وامريكا الذين اختصوا بدراسة العلوم العربية وآدابها وسير رجالها . مع ان القوم غارقون فى الكتب المؤلفـة عن رجالهم – ونسـائهم – المعاصرين فى لغـاتهم ، ممـا أهاب بالمستشرق الروسى الشهير (Ign. Kratchovsky) عضو الاكاديمية العلمية فى لنينغراد وعضو المجمع العلمى العربى فى الشـام ، الى ان يستصرخ العالم الادبى فى رسالة وجهها فى مجلة المجمع المذكور سنة ١٩٣١ عنوانها وموضوعها (درس الآداب العربية

الحديثة ـ مناهجه ومقاصده فى الحاضر ـ نظر واقتراح) جاء فيه « أما الآداب العربية الحديثة فلا نرى عناية لائقة بها ، ولا اهتماما بجمع مآخذها وموادها لا فى الغرب ولا فى الشرق ، ولا يهم هذا كل محب للشعب العربى بل يحزنه وينذره بخطورة الحال ، لأن الفرصة التى تفوت لا ترجع مدى الدهر مرة اخرى ... » .

وانحى باللائمة على مستشرقى الغرب فى هذا الباب بحيث لم ير الا اختصاصيا واحدا درس الآداب الحديثة بكل تدقيق وامعان ألا وهو (Martin Hartmann) الالمانى المتوفى منذ عشر سنوات . واقتفى آثاره فى هذا الدرس صديقه الذى خلفه فى منصبه العلمى (George Kampffmeyer) ، واطرى المستشرق الانكليزى الشاب (H. A. R. Gibb) الذى ساح وجول فى اماكن النهضة الادبية بين العرب وشغف بها وانفق جانبا من وقته واتعابه لهذه الصفحة من تاريخ الآداب [١] .

(١) يحسن ان نضيف الى من ذكرهم الاستاذ كراتشقوفسكى ، المستشرق الفرنسى هنرى بيرس (Henry Perese) الاستاذ فى جامعة الجزائر فقد قام فى السنين الاخيرة بدراسة وافية لنواح من الادب العربى الحديث بتدقيق وتحليل بعيدى المدى ، وكتب فى هذا مقالات وكتبا .

وقـد تطرق الاسـتاذ كراتشقوفسكى الى كتب مى عن باحثة البادية وعائشة تيمور ، و (تاريخ طاهر الجزائرى) للاستاذ محمد كرد على . لم ينس حلقات من سلسلة (الروائع) للاستاذ فؤاد افرام البستانى التى خص ادباء النهضة بها .

وحدد هـذا العالم المقترح طريقـة درس رجال الادب المعاصرين (بالمذهب الاجتماعى) وهو المذهب الادبى التاريخى الذى يطلب ان يدرس الباحث أديبه كالجزء الذى لا ينفصل من المجتمع الانسانى المشترك معه فى كل تقلباته وان يدرس بيئته التى خرج منهـا وكل ماله علاقـة بالمجتمع الذى عاش فيه ، وكل ظواهر الحياة التى تأثر بها او الزمان الذى كان عاملا فيه .

و (مذهب درس الصورة الفنية) ، وهو ان يجعل الباحث نقطـة الدائرة درس صورة التأليف وأساليب المؤلف الفنيـة وطرائقه لتجسيم افكاره وتخيلاته وكل ما يتعلق بصورة التأليف الظاهرة من وزنها وقافيتها او المحاسن اللفظية والمعنوية ، وهذه المذاهب كانت مستعملة فى تاريخ الآداب العربية القديمة على وجـه سطحى .

وهنـا توسع البـاحث الفاضل فى كيفية جمع المصادر لما يتعلق بكل مؤلف او أديب او كاتب عربى معاصر واقترح انشاء

متحف خاص بهذه الشؤون ، وبجانب المتحف يقوم معهد علمى (Institute) يضطلع بهذه المهمة ، ويسعى وراءها ، وقد استخلص غرضه من الحث على ترويج دراسة الآداب العربية الحاضرة فى آخر رسالته بقوله : « يكون فى ذلك امتزاج همة الشرق وتجاريب الغرب المؤدى الى نهضة العرب العلمية الادبية التى هى ضالتنا »

ويبدو لى ان هذا النقص فى عالم البحث عن العربية المعاصرة قد تجسم فى اعين المستشرقين وعلماء الغرب ، فقد وجدت المؤرخ لتاريخ العلوم الاستاذ (George Sarton) من الولايات المتحدة يذيع فى السنة الماضية كلمة قاسية فى مجلة المجمع العلمى العربى ايضا يحمل فيها على اهمال المستشرقين – وهو يقول انه ليس منهم – لانصرافهم عن ذلك ، ويختمها بقوله « واننى متيقن انه يجب على المستشرقين ان يدرسوا الاداب العربية الحديثة كالاداب القديمة اذا هم أرادوا ان يفهموا اخوانهم العرب فهما حقيقيا وان تتحسن العلاقات بين الشرق والغرب .

« ان الكتب العربية الحديثة تفسر وحدها الشرق الناهض .

« ان آداب العرب فى الوقت الحاضر تحمل العبء الحى فى تطور اللغة وتبين طموح الشرقيين ومقاصدهم وآمالهم واوجالهم وتوق قلوبهم الى العلا »

من اجل هـذا يسرنى الالتفات الى درس أدب مشهورى العصر من شـعراء وكتـاب ، ولا سيما ادباء المهجر ، فان أدب المهجر بطابعه الخاص لم يزل غير معروف فى الشرق العربى كما هو الحال فى آداب الاقطار الاخرى وفى مقدمتها مصر التى تغلغل منتوجها الادبى وآثارها العقلية فى كل زاوية من زوايا الدنيا الناطقـة بالضاد .

والغريب فى أمر آثار ادباء المهجر من العرب ـ وجلهـم لبنانيون ـ انها كانت مجهولة كل الجهل فى قطر عربى ضخم كوادى النيـل يحوى ملايين القراء لغتهم العربيـة . فاذا انت تصفحت الجرائد والمجلات المصرية الى ما قبل الحرب العظمى الاولى ، ندر ان تعثر على شعر او نثر لهؤلاء الادباء الذين نبـغ فيهم جماعة تفوقوا وعدوا مفخرة العبقرية الادبية فى عصرنا . حتى ان (انطون بك الجميل) وقد كان يصدر مجلة (الزهور) مع زميله (الاستاذ امين تقى الدين المحامى) وهما من نبت لبنان ، لم يودع (مختارات الزهور) الشعرية شيئا لادباء المهاجر العربية عدا نخب من شـعر ابى ماضى وذلك لان هـذا الشاعر التمع نبوغه الشعرى فى مصر فقد كان يقيم اول الامر فى الاسـكندرية ، وفى هذا الثغر طبع ديوانه الاول (تذكار الماضى) . وعلينا ان

تستثنى مجلتى المقتطف و (الهلال) لانهما كانتا تقرظان آثار الادباء المهاجرين المرسل بها اليهما ، وتنقلان طرفا منها فى الاحايين . الا ان مجلة الهلال ، بعد انجلاء غياهب الحرب عنيت ، فى جملة ما عنيت به من احياء النهضة الادبية ، نشر مقالات ومقطوعات من الشعر المنثورلجبران خليل جبران وامين الريحانى ، ولم تكتف بذلك بل نشرت سنة ١٩٢٣ مجموعا من الرسائل الجبرانية بعنوان (العواصف) وهو من اقوى الكتب التى تمثل الكاتب الثائر والفيلسوف المتمرد فى « عواصفه الفكرية التى أثارها كاتبها على المجتمع العمرانى ليدك منه مواطن الضعف والوهن تمهيدا للبناء المتين السليم » .

ويلوح لى ان آثار جبران لفتت انظار القراء المصريين وغيرهم من مقتنى ثمرات المطابع فى ارض الكنانة بدلالة ان بعض الوراقين والناشرين طفقوا يجدون فى نشر كتب جبران التى سبق ان طبعت فى امريكا بينها رواياته (الاجنحة المتكسرة) واخواتها ، وكتابه المبتكر فى الشعر الجديد (المواكب)الموضح بصور رمزية من ريشة الشاعر نفسه . واهتم صاحب (مكتبة العرب) بمصر بجمع طائفة من مقالات جبران ومنظوماته والواحه التصويرية الفاتنة فى كتاب أسماه (البدائع والطرائف) اعترف

به جبران خليل جبران على ما يظهر ، لاننا وجدنا جريدة السائح الادبية التى تصدر فى نيويورك لسانا لجمعية (الرابطة القلمية) يترأس عليها جبران اذاعت بيانا قاسيا نفت فيه ان تكون المجموعات التى أصدرها بعض الناشرين فى مصر فى تلك السنوات (عالم الرؤيا) و (مملكة الخيال) و (مناجاة ارواح) و (فى مواكب الامم والشعوب) منسوبة الى جبران هى من قلم هذا الكاتب ، او ان تعد فى قائمة كتبه وآثاره . كما نشرت مطابع اخرى بعض آثار لادباء المهجر . ولكن برغم هذا رأينا الادباء المصريين لم يتقبلوا الاسلوب العربى للادباء المتأمركين الذين اطلق على بيئتهم الادبية بعضهم « الاندلس الجديدة » بالارتياح والتقدير . حتى ان فيلسوف الفريكة امين الريحانى لما زار مصر فى شتاء سـنة ١٩٢٢ مبتدئا بها رحلته العربيـة الواسعة ، وخف كثيرون من الادباء الى الترحيب به وعقدت حفلات عظيمة لتكريمه نهض الاستاذ عباس محمود العقاد فحمل عليـه فى مجلـة (الرجاء) الاسبوعية حملات عنيفة وهاجم اسلوبه فى الشعر المنثور ، مع ان الريحـانى القى على ضفاف النيل قصيدتين من هـذا الشعر (الشرق) و (مصر) تعـدان من روائع الشعر العربى فى القرن العشرين . وكان لائقا بأديب ناقد موهوب واسع الثقافة عليم باسرار

الصناعة الادبية كالاستاذ العقاد ان يقدرهما ويرحب بهذه الطريقة الجديدة •

ومع هذا قد لقى أدب المهجر نصراء فى ذلك القطر العربى ، بدلالة ان بعض الادباء عنوا فى هـذه الفترة بنشر كتب تتضمن مختارات من آثار المهجر منهم توفيق الرافعى فى كتابه (ما وراء البحار او النبوغ العربى الجـديد) وحبيب سـلامة فى كتابه (الشعر المنثور) • ثم انبرى فى العهد الاخير (الدكتور محمد مندور) احد اساتذة الادب فى الجامعة المصرية يشيد بأدب المهجر من شعر ونثر ، ويجزم انه من الادب المهموس الذى يعده جماعة من النقاد والادباء فى اوربا من أعلى طبقة فى درجـات الادب الحديث • وتجد نخبة ممتازة من مقالاته هذه فى كتابه الانتقادى (فى الميزان الجديد) • واعتقد ان اعلام الادب العربى فى المهجر سواء من بقى هناك الى آخر عمره او من عاد الى احضان الوطن الشرقى كأمين الريحـانى وميخائيل نعيمة سيشغلون حيزا فى تـاريخ ادبنـا الحـديث ، وسيؤثرون فى الاسـلوب المستجد للكتابة والادب فى هذا القرن • وبديهى ان ليس كل ما تخرجه المطابع العربية فى امريكا يصح ان يعد نموذجا من الادب الحى الذى نتحدث عنه ، وانما اقصد الآيات الخالدة لهؤلاء الاعلام فقط

الذين اخـذ الموت يقلل من عـددهم شيئا فشيئا ، وعسر ظهور شخصيات ادبية جديدة تحتل الامكنة التى شغرت بوفاة جبران خليل جبران وامين الريحانى •

واذا كنت اعجب فعجبى من بعض ادبائنا الذين يجمعون الى الثقافة العربية القديمة التحصيل الادبى فى معاهد الغرب ، ثم يرتدون عن عصرهم ارتدادا ويرجعون القهقرى ، ويأخذون فى نقد هؤلاء النوابغ بموازين عتيقة مختلة ، كما فعل (الدكتور عمر فروخ) فى سلسلة مقالات فى نقد آثار جبران خليل جبران فى مجلة (الامالى البيروتية) ، تلك المقالات التى ما هى الا انهر من تحامل ومغالطة وتعصب غير مستحب للاسلوب العتيق فى التفكير والتعبـير •

وعلى نقيض ذلك نجد ناقدا عبقريا كالدكتور اسـماعيل احمد أدهم الملمع اليه آنفا يتحدث بحـديث نشرته (السياسـة الاسبوعية) فى حينه ، فيجزم ان آثار جبران عى أعلى مرتبة من التفوق الادبى ، وهى الوحيدة فى اللغة العربية من نوعهـا فى هـذا الزمان بين الموضوعـات التى يصح ان تترجـم للغـات الغربية وتنال من تلك الاقوام كل تقدير واعجاب •

ولا يتسع المجال فى كلمة تمهيدية كهذه لبحث أدب المهجر وتبيان خصائصه وميزاته وتحليل اسلوبه والتوسع فى محاسنه ومآخذه لان ذلك يقتضى دراسة خاصة وافية ترصد لهذا الغرض ، وليس مكانها فى هذه المقدمة ، ولا سيما ان مؤلف هذه الرسالة قد تطرق الى الموضوع بايجاز ينقع غلة المتطلع المستفيد .

اما الشاعر ايليا ابو ماضى فقد أحرز مكانة علية عند قراء العرب فى ايامنا بحيث تتناقل أشعاره صحف مصر ومجلاتها وبقية الاقطار العربية . ولشعره هوون بل مفتونون حيث ينطق بحرف عربى تحت سماء القبة الزرقاء ، وانك لتسر وتعجب عندما تجد ناشرين متنافسين يتباريان فى طبع ديوانه (الجدول) فى النجف الاشرف قبل سنوات ، وتنفد النسخ العديدة من الطبعتين النجفيتين لشعر ابى ماضى . ولا غرو ان تحفل مطابع حاضرة الفرات الادبية ببدائع ايليا الشعرية ، فللنجف عين ادبية نافذة وقلب شاعر حساس يهتز للحن الشجى ويخلبه صدى الاوتار المنسجمة وخيال مجنح يسبح فى عوالم غير منظورة . وقد نفحت العربية فى سالف العصر وحاضره بشعراء يعدون كواكب نيرة فى الأدب العصرى .

اما وقد عالج منشىء هذه الرسالة بطريقته المحببة شعر أبى ماضى وخصائصه فى طرفته فخير ما اقوله فيها يدركه القراء عند الامتاع بتلاوتها ، وانى لأرجو ان يشفعها بدراسات اخرى لشعرائنا وأدبائنا المعاصرين – كما وعد – تجىء صفحة ناطقة بسلامة الذوق العراقى وحدة الحاسة الفنية والادراك الصحيح للأدب فى هذا العهد ، وكفى بهذا مفخرة للأديب مؤلف الكتاب وجيله من شباب الادباء وبلده .

بغداد فى ٤ نيسان ١٩٤٥

رفائيل بطى

صاحب جريدة (البلاد)

ايليا ابو ماضي

والحركة الادبية في المهجر

العرب في الموطن الجديد

أرض آبائنا عليك سلام
وسقى الله انفس الآباء
ما هجرناك اذ هجرناك طوعا
لا تظنى العقوق فى الابناء

ضمت اميركة فى مطلع القرن العشرين موجات من المهاجرين العرب ربا عددهم فى قسميها الشمالى والجنوبى على المليون ونصف المليون . وكان اكثر هؤلاء المهاجرين من السوريين واللبنانيين الذين هجروا بلادهم لاسباب اقتصادية واجتماعية وسياسية متضافرة .

فقد كان الوضع الاقتصادى فى سورية ولبنان فى غاية التأخر والاضطراب ، فالارض بائرة والصناعة متأخرة واسباب الحياة ضيقة ممتنعة ، ولم يكن ثمة ما

يبشر بنهضة أو أصلاح ، اذ اثر ذلك الوضع فى الحالة الاجتماعية فافسدها ، وبالمستوى الاخلاقى فبلبله ، ففشا التفسخ الخلقى ، واضطربت الماكنة الحكومية التى باتت بالية متهالكة . وقد بيعت الاخلاق بالاموال ، وحل الخبز محل الضمير ، وقامت الوساطة والقرابة مقام الحق، واصبح عمل الموظف عرقلة الاعمال وظلم الرعية وحياكة الدسائس ، وصار الدين سببا الى الدنيا وآلة بيد رجاله يستغلونه لقضاء المآرب الخاصة وللتدخل فيما يعنيهم وما لا يعنيهم من الامور .

ولسنا نذكر أمرا غريبا اذا قلنا ان الحركة الثقافية فى سورية ولبنان كانت آخذة فى الرقى والازدهار الى جانب هذه الحالة الاجتماعية المتأخرة ، بل على الرغم منها . فالارساليات الدينية الاجنبية من اميركية وانكليزية وفرنسية وايطالية والمانية وروسية ، والمدارس المختلفة

التى تبـارت فى انشائهـا ، كانت عاملا مهما فى نشر الثقافـة والتعليم فى البلاد السورية • وقـد انشئت نواة الجـامعة الاميركيـة فى أواخر الثلث الثانى من القرن التاسع عشـر ، وكذلك أنشئت كلية القديس يوسف اليسوعية وسائر المعـاهد الفرنسـية العاليـة والثانويـة والابتدائية التى انتشرت فى فجاج البلاد • فقامت هذه المنشئآت ، الى جانب واجبهـا الدينى بخدمـة ثقافيـة كبرى ، وقد كان للاميريكيين وحدهم نحو مائة وثلاثين مدرسة متفرقة فى سورية ولبنان فى حدود سنة (١٨٨٢)[١] ، وكانت تهتم بتعليم الذكور والاناث على السواء •

والى جانب هـذه المدارس الاجنيـة كانت تقوم المدارس الوطنيـة الاهليـة التى كانت تتبـارى فى

(١) مجلة المقتطف ـ السنة السابعة ص (٤٦٨) • وكذلك راجع انيس زكريا نصولى (اسباب النهضة العربية فى القرن التاسـع عشر) ص (٤٧) مطبعة طبارة بيروت ١٩٢٦ •

اجتذاب الطلاب كالمدرسة الوطنية للمعلم بطرس البستانى ومدرسة عبية ومدرسة الحكمة والمدرسة البطريركية والكلية العثمانية ومدرسة زهرة الاحسان والمدارس المارونية .

اما المدارس الحكومية فان الحكومة العثمانية لم تكن لتعتنى بها كثيرا ، وقد بلغت جباية سورية فى أوائل القرن العشرين نحوا من تسعين مليونا من الفرنكات ، كان يذهب الى استانبول ما يقارب نصفها ، ويصرف سنويا (٧٣٣٫٠٠٠) جنيه تركى فى سبيل الجيش المحافظ فى سورية و (٤٩٫٠٠٠) جنيه فى المشاريع العمومية ، فيبقى (٧١٫٠٠٠) جنيه لمدارس المعارف[1] ، ولذلك

(١) انيس النصولى ـ اسباب النهضة العربية ص (٤٩) وما بعدها . وراجع كتاب الأب لامنس اليسوعى الذى يشير اليه (La Syrie) ص ٢٠٠ ـ ٢٠١ وكذلك راجع احمد بديع المغربى (فجر القومية العربية الحديثة) ١٩٣٨ مطبعة الجزيرة بغداد ص ٢ وما بعدها ، والمراجع التى ذكرها .

أتجـه الوطنيون الى المدارس الاجنبية التى أخذت تنشأ فى أواخر القرن التاسع عشر ، كمدارس الفرير وغيرها .

وقد أعان على هذه النهضة الثقافية انتشار الطباعة فى الاقطار العربية ، ولا سيما فى مصر وسورية ، ذلك الانتشار الذى أفضى الى انتشار الصحافة وازدهارها . وليس ثمة شك فى ان الطباعة والصحافة كانتا من أقوى عوامل النهضة العربيـة فى أواخر القرن التـاسع عشـر وأوائل القرن العشرين .

هذه النهضة الثقافية التى لم يسمح لنـا المجال الا بأن نلقى نظرة مسرعة على أهم مظاهرها كان لهـا أثر قوى فى تشجيع الهجرة فيما نرى . فالجيل الجديد المثقف أخـذ يشعر بفسـاد الحـالة الاجتماعيـة ، وسوء النظام الاقتصادى ، ووطأة الظلم الاجنبى ، واساءة استعمال السلطة الدينية . وليس يكفى سببا للاصلاح وباعثا على

التمرد والثورة ان تسوء الحالة ويضطرب الوضع ، وانما
يجب ان يدعمهما شعور الناس بهما • وقد سكتت فرنسة
فى القرن الثامن عشر عن حالتها الفاسدة وحكامها
الظالمين ، حتى دعم ذلك الظلم شعور بالظلم بثه الكتاب
والمفكرون فى الشعب ، فاذا هو يتحرك ويثور لحقوقه
وحرياته • وكذلك كان الامر فى البلاد العربية ذلك
الحين • فالحال فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن
العشرين لم تكن أسوأ منها قبل نصف قرن او قرن
كامل من الزمان ، وانما الذى جد على الوضع هو أن
انتشار الثقافة جعل الشعب يشعر بسوء الوصع ويحس
بوطأة الظلم • ويندر ان يشعر شعب له نصيب من
الثقافة ، بالتأخر او بالظلم ثم يسكت عنهما ولا يتمرد
عليهما عاجلا كان ذلك او آجلا ، على ان هذا التمرد
يتبع ما يتسنى لذلك الشعب من قوة ووسائل • وهو اما

ان يصدر بشكل ايجابي كالثورة التي شهدتها فرنسة في أواخر القرن الثامن عشر ، واما أن يتخذ شكلا سلبيا كالهجرة التي عرفتها سورية في أواخر القرن التاسع عشر .

ويضاف الى ذلك ايضا ، ان الحكومة العثمانية لضعفها وتهالكها أوانذاك ، كانت ترعب من كل حركة تبدر من الشعب ، وتحاول خنقها في مهدها . لذلك كانت تصدق اصغر الشكوك ، وتجفل من أتفه التهم ، وتأخذ بأضعف الاحتمالات ، وتصدر الاحكام تلو الاحكام بالسجن والنفي والاعدام . ويذكر الاستاذ (فيليب حتى) أنه كان يجتمع في وقت من الاوقات في مدينة نيويورك وحدها ما لا يقل عن عشرين شخصا من الهاربين من أحكام الاعدام[١] .

(١) (السوريون في الولايات المتحدة الاميركية) ص ١٢ مطبعة المقتطف بمصر سنة ١٩٢٢ .

والى جانب هذه الاسباب القوية التى أهابت بالعرب الى ترك الموطن ودفعت بهـم الى الهجرة ، كانت فى اميركة عوامل جاذبة ومشوقات قوية لا يمكن ان ننكر أثرها فى اجتذاب هؤلاء المهاجرين لان هذا الجيل الجديد المثقف كان يسمع بالحياة الاميركية الراقية ، ويقرأ عن سعة آفاقها و كثرة ميادينها ونعيم حضارتها ، و كان باب الهجرة مفتوحا على مصراعيه ، فتدفق أبناء العرب نحو بلاد الحرية والنور زرافات ووحدانا .

أدب المهجر

لست مني ان حسبت الشعر الفاظا ووزنا
خالفت دربك دربي وانقضى ما كان منا

ذهب أكثر المهاجرين العرب الى اميركة للتجارة والعمل ، وكان بين هذه الالوف المؤلفة من المهاجرين أشخاص وهبوا ملكات أدبية ومواهب فنية . فوجدوا من اوقاتهم متسعا للانتاج الادبي ، وقدموا للغتهم ، وهم في غمرة الكفاح التجاري ، أدبا ثمينا غنيا سرعان ما احتل مكانة خطيرة في الاوساط الادبية ، وأثر في النهضة الادبية تأثيرا قويا ، وأنشأ فصلا جديدا مهما في تاريخ الادب العربي .

وكان لابد لهذه المدرسة الادبية التي قامت وراء البحار أن تحمل طابعا يميزها كل التمييز عن المدرسة

الادبية القائمة فى الشرق ، لان الظروف التى ولدت هذا الادب كانت تختلف اختلافا بينا عن الظروف المحيطة بالادب العربى أوانذاك . فقد كان الادب فى الشرق يرسف فى قيود ثقيلة من الجمود والتقليد ، حتى اصبح الشعر لحنا معادا ممجوجا يحمل معانى هزيلة فى الفاظ فخمة ، والكتابة صنعة كاسدة تعرض ، وقوالب تكرر وأفكارا تجتر ، وكان كلاهما سببا للتكسب الوضيع والاغراض السخيفة .

والحق ان بذور النهضة الحديثة لم تكن منعدمة بتاتا فى ذلك الحين ، فقد كانت حملة نابليون واصلاحات محمد على قد بذرتها منذ أمد ، ولكنها لم تكن قد آتت أكلها الناضج بعد . وليس من اليسير ان يتحرر أدب بين عشية وضحاها من كبوة ظل يتردى فيها زها ستة قرون .

قابل هؤلاء المهاجرون فى وطنهم الجديد وجوها

من الحياة لا عهد لهم بها من قبل ، ولجأوا فى سبيل العيش الى ألوان من الكفاح لم يعرفوها فى وطنهم القديم ، ورأوا من الحضارة صورا كانوا قد سمعوا بها فيما سمعوا من العجائب والاساطير ، فشعروا حيال ذلك كله بما يشعر به الخارج الى النور بعد ان قضى فى الظلام دهرا طويلا ، وتوفرت لديهم منه عواطف جديدة وافكار لم يعهدوها ، عواطف وافكار لن تجدها عند السوريين فى سورية ، ولا عند الاميركيين فى اميركة ولن تجدها الا عند هؤلاء المهاجرين الذين انتقلوا من سورية الى اميركة ، وتبدلوا من حال الى حال .

ثم الهبت الغربة حنينهم الى الوطن ، وبدلت الهجرة منطقهم فى الحياة ، فعبروا عن خطرات نفوسهم وخلجات قلوبهم وعن مشاهداتهم وصروف زمانهم وتكاليف حياتهم بأدب جديد لم يكن باعثه التقليد ولا الضرورة كما

كان الامر فى بلادهم التى تركوها ، حيث خمدت القرائح وخدرت العواطف وانعدمت الافكار ، وحيث كسدت التجارة وبارت الصناعة وضاقت ميادين العمل ، فاتخذ الناس من كل شيء ، حتى أفكارهم وعواطفهم وضمائرهم وسيلة للتكسب وسبيلا الى التجارة ؛ وانما كان هذا الادب الجديد أدبا تحرر من الاغلال التى كانت تثقله ، وحطم القيود التى كانت تغله ، واجتمع له من الظروف والملابسات ما جعله عميقا فى عواطفه واسعا فى خياله ومستحدثا فى اساليبه .

واذا كان لابد لنا من رجع هذا الادب الى مذهب فنى يمثله ، فاننا بالرغم من بعض النزعات الواقعية والشطحات الرمزية التى تبدو عليه بين الحين والحين ، نجد ان الروح الرومانتيكية (Romanticism) هى الغالبة عليه . وذلك لم يكن بدعا من الامر ، ولم يكن

لادباء المهجر من ظروفهم مناص عن انتـاج غير هـذا الادب . فلم يكن فى الامكان ان يكون أدب هذه المدرسة كلاسيكيا (Classic) يحترم التقاليد الادبية التى حافظ عليها العرب فى كل عهودهـم ، لان هـذا الادب فى حقيقته كان رد فعـل قوى (للكلاسيكيـة) التى أغيت على الادب العربى وقيدته و كادت تخنقه . و كذلك لم تكن الواقعية (Realism) لتلائم الانواع الادبية التى كان يميل اليها أدباء هـذه المدرسة غالبا ، كالمقطوعات الشعرية القصيرة والقطع الشعرية المنثورة ، لان الواقعية - فى الواقع - لا يمكن ان تمرع حرة طليقة الا فى حقل من الادب القصصى ، ولم يكن الادب القصصى فى المهجر ناضجا ، لان هذا الادب يحتاج الى التفرغ والاستقرار ، وذلك لم يتح لادباء المهجر ، كمـا ان الموضوعات التى كانوا ينزعون الى معالجتها لم يكن يلائمها هذا الضرب

من الادب . واما الرمزية (Symbolism) وما وراء الواقعية (Surrealism) وسواهما من المذاهب الاخرى فقد كانت لا تزال جديدة فى بدء ظهورها وانتشارها ، ولم يكن قد تسنى لادباء العرب ان يتأثروا بها بعد . ويضاف الى ذلك كله ان الرومانتيكية بما فيها من اذعان للعاطفة واستعانة بالخيال وجنوح الى الزخرفة تلائم الطبع العربى والذوق الشرقى كل الملائمة ، كما انها تصلح للتعبير عن اغراض هذه المدرسة التى لا تخلو من حزن وتشاؤم وحنين الى الوطن وشكوى من الغربة .

على ان هنالك نقطة أغفلها كل الباحثين الذين حاولوا تعليل هذه الرومانتيكية المسيطرة على الادب العربى فى المهجر ، وهذا التشاؤم الذى يطغى عليه ، وظلوا حيالها حائرين . فالمهاجرون العرب الذين قدموا الى اميركة لم يقنعوا بطبيعة الحال بما أصابوا من ثقافة

بلادهم وآداب لغتهم ، وانما عمدوا هناك الى دراسة أدب هذا الموطن الجديد الذى أتخذوه ، وهذه اللغة الجديدة التى تعلموها ، ومنهم من درسه دراسة جيدة وأصاب فيه نصيبا وافرا جعله ينتج بالانكليزية شعرا ونثرا يلقى كل اعجاب . والمذهب الذى يغلب على الادب الانكليزى بطبيعة الحال هو (الرومانتيكية) ، لان هذا المذهب هو التعبير الصادق عن وجدان الانكليز ، وهو السائد على أغلب آثارهم الادبية . والحق ان العناصر الكلاسيكية والواقعية فى الادب الانكليزى كانت دخيلة عليه ، وهى قد انتقلت اليه من الآداب اللاتينية ، كالفرنسية والايطالية ، ولكن الانكليز لم يتأثروا بها الا قليلا ، وقد كان ضرر ذلك بالادب الانكليزى أكثر من نفعه .

والخصيصة الأخيرة للادب العربى فى المهجر تظهر

على لغة هـذا الادب . فان أدباء المهجر لم يكونوا من الذين احترفوا الادب ، كما أشرنا الى ذلك ، وانما كان الشعر والكتابة هوايتهم التى يجنحون اليها كلما وجدوا من أعمالهم الشاقة مهربا ، ومن وقتهم الضيق متسعا . وهم كذلك لم يدرسوا الشعر واللغـة دراسـة منظمة عميقة ، ولم تتح لهم أوقاتهم ولا أحوالهم ان يتوسعوا فيهـا فى الوطن الجـديد ، فعبروا عما كان يجيش فى صدورهم ويجول فى أفكارهم بأسلوب بسيط صادق . لذلك حمل كثير من مترمتى الكتاب فى البلاد العربية عليهم حملات شعوا . ونحن وان كنا لا ننكر أنه كان فى امكان أولئك الادباء توقى كثير من الغلطات التى وقعوا فيهـا بشىء قليل من العناية ، وبمراجعـة يسيرة لمبادىء النحو والبلاغـة والعروض ، وان ذلك كان واجبـا عليهم لا يجوز اهمالـه ، فاننـا لا نحسب ان ذلك يغض كثيرا

من قيمة تلك الآداب ، وما يزال الفرنسيون يضربون المثل بفولتير فى الخطأ فى الاملاء ، وأكثر الامثلة التى نوردها على الخطأ النحوى واللغوى والبلاغى انما نوردها من شعر المتنبى .

ونحن اذا تأملنا الفاظ الادب المهجرى وتراكيبه فقل أن نجد لها مثيلا فى أدبنا الحديث من حيث الدقة والقدرة على اثارة الاحساس . وأما استعماله للالفاظ المألوفة فليس ضعفا فى هذا الادب وانما هو من أسرار القوة فيه ، لان هذه الالفاظ المألوفة ، ولا نقول المبتذلة ، قد تحددت معانيها بكثرة الاستعمال وتكونت حولها على الاجيال هالة من المعانى تدفع مشاعرنا الى التداعى وأفكارنا الى الاسترسال (١) .

(١) راجع فى لغة الادب المهجرى الدكتور محمد مندور (فى الميزان الجديد) ص ٥٥ وما بعدها .

الرابطة القلمية

ذوى الاقلام انا فى احتياج
الى غير الشتائم والسباب
فهل من قائد فيكم حكيم
يسير بنا الى القصد الصواب

مارس الكتابة فى المهجر كثير من العرب ، وظهرت آثارهم فيما كان يصدر هناك من صحف مختلفة . وقد كان للعرب فى اميركة صحافتهم الراقية ومكتباتهم الكبيرة وأنديتهم المختلفة ، كما كان لهم جمعياتهم الادبية التى ربما كانت الاولى من نوعها فى النهضة الحديثة ك (الرابطة القلمية) التى قامت فى نيويورك ، و (العصبة الاندلسية) التى تألفت فى بونيس آيرس .

وقد أنشأ (الرابطة القلمية) فريق من الادباء العرب

فى الولايات المتحدة الاميركية سنة (١٩٢٠) ، وأرادوا بها أن تضم قواهـم وتوحد مسعاهم فى سبيل الادب العربى ، وتبث فيـه روحا جديدة نشيطة ، وتعمل على انتشالـه من وهدة الخمول والتقليـد التى كان يتردى فيها . واتخذوا من جريدة (الفنون) أولا ، ثم (السائح) التى كان يصدرهـا أحدهـم (عبدالمسيح حداد) ، حلبة لادبهم ، ونشروا فيها القطع الموفقة من الشعر والنثر .

وقد أخذ البعض من هذه الآثار يلقى اعجابا بالغا فى البلاد العربية . وكانت (السائح) تصدر عددا ممتازا فى كل عام . فيه قطع مختارة موفقة من الادب المهجرى فكانت الصحف فى البلاد العربية كلها تكتب فصولا فيه وتنقل عنه الشىء الكثير . وكانت الآراء قد انقسمت بشأنها الى قسمين ، فالبعض معجب بها وبالتجديد الذى تحدثه فى الادب العربى ، والبعض الآخر ناقم عليهـا

وغاض من قدرها لتهاونهـا بأمر اللغة وقواعدها ، على
أن الامر الذى لا ريب فيـه هو أن الرابطة القلمية قد
أخذت تترك فى الادب العربى دويا كبيرا وتأثيرا أخذ
يقوى ويشتد ، واستطاعت أخيرا ان تحتل مكانة محترمة
وتمثل مذهبا له قيمته وأنصاره ، يحمل لواء التجديد فى
الادب الحديث .

وقد أصدرت الرابطة كتابا بعنوان (مجموعة الرابطة
القلمية لسنة ١٩٢١) يضم طائفة مختارة من آثار هـذه
المدرسة فى سنتها الاولى ، فكان صدوره حدثا خطيرا فى
تاريخ الادب العربى ، يحد الحد بين عهدين من عهوده ،
امتد أولهمـا خمسة عشـر قرنا من الزمان ، لم يتململ
خلالها هذا الادب فى قيوده الا قليلا ، ولم يتجدد الا
بمقدار ، وكسرت فى ثانيهما ـ وقد أعلنت هذه المجموعة
افتتاحـه ـ قيود المحافظـة والتقليد التى كانت تكبـل

الادباء ، وحطمت الاصنام التى كانوا يسجدون لهـا ، وخرج فيه الادب العربى الى عهد من الحرية والنور .

وقد كان جبران خيل جبران وميخائيل نعيمة وايليا أبو ماضى أبرز (عمال) الرابطة القلمية وأقوى عناصرها . فأخذت آثارهم فى مدة قصيرة تنال الشهرة والاعجاب فى البلاد العربية . فأخذت كتابات الاول تنقل او تنشر رأسا فى الصحف والمجلات المحترمة كالهلال وغيرها ، ثم نشرت له (دار الهلال) كتـاب (العواصف) بطبعـة كانت من أجمل ما صدر فى المطابع العربية أوانذاك من حيث ورقهـا وطبعها وتنسيقها ، ثم طبعت الدار نفسها مجموعة من كتبه ، كما أصدر له فى مصر كتابان هما (المواكب) و (البدائع والطرائف) و كذلك أخذت قصائد الثالث تنقل الى صحف البلاد العربيـة مقرونة بعبارات التقدير والاعجاب . ثم جمع أحد الشبان المتأدبين فى مصر

سنة ١٩٢٠ قطعا مختارة من كتابات أدباء المهجر واشعارهم مع تراجم قصيرة لاصحابهـا فى كتـاب سماه (بلاغة العرب فى القرن العشرين) فنال هـذا الكتاب اعجاب القراء وتشجيع الادباء وأعيد طبعه بعد ثلاث سنوات .

وكان أن قام (أمين الريحانى) فى سنة ١٩٢٢ بسفرة الى مصر ، فأقيمت له سلسلة من حفلات التكريم ، والقيت فيها قصائد وكلمات لاعاظم الشعراء والكتاب كشوقى والكاظمى ومى ومنصور فهمى وأسـعد داغر وانطون الجميل واحمد رامى وغيرهـم ، وكتبت الصحف عنه طويلا ونشرت له قصائد ومقالات عديدة [١] ، فبحث

(١) جمعها توفيق الرافعى فى كتابه (امين الريحانى ـ ناشر فلسفة الشرق فى بلاد الغرب) المطبعة الرحمانية مصر سنة ١٩٢٢ . ثم جاء الريحانى العراق فى السنة عينها فجمع الاستاذ رفائيل بطى ما قيل فيه بكتابه (امين الريحانى فى العراق) مطبعة دار السلام بغداد .

بهذه المناسبة عن الادب العربى فى اميركة وعن جبران خليل جبران وايليا ابو ماضى غير مرة .

وأصدرت أحدى دور النشر الكبيرة فى مصر سنة ١٩٢٣ مجموعة من مقالات ميخائيل نعيمة فى النقد الادبى بعنوان (الغربال) مصدره بمقدمة لعباس محمود العقاد الذى كانت شهرته ومكانته فى الذروة بين أدباء الجيل ، وتبين هذه المقدمة مركز نعيمة أوانذاك .

فكانت كل هذه العوامل قد ساعدت كثيرا فى نشر أدب المهجر فى البلاد العربية واطلاع قرائها عليه وتعريفهم به وساهمت فى احلاله مكانته الرفيعة .

وقد تقلب جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة بين الشعر والقصص والشعر المنثور والنقد الادبى أيضا ، وأنتجوا فى كل من هذه الفنون قطعا متفاوتة فى القيمة بينها ما يمكن ان يعد فتحا جديدا فى الادب العربى .

أما ايليا أبو ماضى فقد تفرغ للشعر وبلغ فيه شأوا بعيدا سنحاول ان ندرس مداه ونحلل عناصره ٠و كان خليقا بأبى ماضى ان يكرس للشعر كل جهوده ، اذ قل أن تجد بين الشعراء الكبار من استطاع أن يجمع الى الشعر ضرة من سائر العلوم او الفنون ثم ينجح فيـه وينـال منزلة كبيرة ٠

ونحسب أنه كان لابد لتوفية أبى ماضى حقه من البحث أن نتناول منشأ المدرسة المهجرية ومميزاتها ببعض التفصيل ، وربما اضطررنا الى معاودة الكلام عليهـا فى غضون البحث ليمكننـا ان نتفهـم شـعر أبى مـاضى والظروف التى أحاطت به على وجهها الصحيح ٠

تذكار الماضى

أين ضحكي وبكائي وانا طفل صغير
اين جهلي ومراحي وانا غض غرير
اين احلامي وكانت كيفما سرت تسير
كلها ضاعت ولكن كيف ضاعت ؟ لست ادرى

ولد ايليا أبو ماضى فى (المحيدثة) سنة ١٨٨٩ ، وهو لبنانى عصامى صميم ، يشهد على ذلك أنه هاجر الى مصر وهو حدث فى الحادية عشرة من عمره ليتعاطى التجارة . وقد اتخذ لنفسه هناك محلا يبيع فيه السجاير والدخان ، وأخذ يستغل أوقات فراغه فى المطالعة والدراسة ونظم الشعر الذى أظهر فيه منذ صغره قابلية تنبىء بمستقبله . ووقع عليه الاستاذ (انطون الجميل) فرآه يكتب شعرا فى الدكان ، فقرأه وأعجب به ونشره فى مجلة (الزهور) التى كان يصدرها . ثم طبع أبو ماضى فى مصر ما تجمع

عنده من الشعر فى ديوان سماه (تذكار الماضى)، ويعد هذا الجزء فاتحة طيبة لاتجاهه الذى أحكم وسدد فيما بعد .

ولكن الادباء والشعراء فى مصر أقاموا الدنيا على أبى ماضى ولم يقعدوها ، وأوسعوه نقدا وتجريحا، وظلوا يناقشونه فى هذه الفاء ما علاقتها بالتركيب وهل لها سبب من الاعراب ، وهذه الهمزة لماذا قطعها وهى همزة وصل ، وهذه التفعيلة لماذا جعلها مستفعلن وهى متفعلن ، ولم يعن احد بالنظر فى هذه المعانى الباهرة التى يبتدعها والخيال الطريف الذى يحمله والاسلوب الجديد الذى يستنه . فلم يطق أبو ماضى صبرا على ذلك فشد رحاله الى اميركة سنة (١٩١١) بعد ان قضى فى مصر احد عشر عاما من فجر حياته .

ولا تبين المصادر التى بين ايدينا عن هذا الشاعر المعاصر ، وهى لا تكون عشر ما عندنا من المصادر عن

أمرىء القيس الذى عاش فى الجاهلية قبل خمسة عشر قرنا ، هل كان الهجوم الذى قوبل به ديوانه والاخفاق الذى لقيه فى مصر هو العامل الرئيسى أو السبب الوحيد لسفره ، أو أن هنالك اسبابا اخرى تساويه فى الاهمية أو تزيد عليه ، كفشله فى تجارته بمصر ، أو اتخاذه السفر الى مصر خطوة أولى يمهد لنفسه بها الهجرة الى العالم الجديد بعد ان يجمع ثروة قليلة . ويؤيد هذا الرأى ان الحكومة العثمانية حينئذ كانت قد منعت المهاجرة الى اميركة على الورق ، ورفضت اعطاء أجوزة السفر للمهاجرين السوريين اليها ، فكان لا بد لهم جميعا من تحصيل هذه الأجوزة الى مصر ثم الرحيل منها الى اميركة [١] .

(١) فيليب حتى ـ السوريون فى الولايات المتحدة الاميركية ص ٣ .

سكن أبو ماضى فى اميركة مدينة (سنسناتى) اولا ، وتعاطى فيها التجارة بضعة أعوام ، والظاهر انه اشتغل هناك بتجارة السيكاير والدخان ايضا . وقد كان طوال هذه المدة يدرس الادب ويتأمل فى الوجود ويرنو الى الاخرة ، ثم يسجل خطرات نفسه وخلجات قلبه ووثبات فكره فى شعره .

ولكن أبا ماضى الذى هجر مصر ساخطا على ما لقيه فيها ، ما زال يذكرها فى مهجره الجديد بالشوق والحنين ، ويقول :

وطنان اشوق ما اكون اليهما
مصر التى خلفتها وبلادى
ومواطن الارواح يعظم شأنها
فى النفس فوق مواطن الاجساد

الجزء الثانى

فلا تحسبانى اذرف الدمع عـادة
ولا تحسبانى أنشد الشعر لاهيـا
ولكنهـا نفسى اذا جاش جأشـها
وفاض عليها الهم فاضت قوافيـا

أنتقل ايليا أبو ماضى فى سنة (١٩١٦) الى نيويورك وفيها استطاع ان يزيد الصلة باصدقائه العاملين معه فى الميدان عينه ، كجبران ونعيمة وغيرهمـا من الاصدقاء الذين كونوا الرابطة القلمية فيما بعد . وفيها طبع ألجزء الثانى من ديوانه [١] مصـدرا بمقـدمة لجبران خليـل جبران بأسلوبه المعروف ، يختمها ، بعـد تعريف طويل للشعر والشاعر ، بقوله :

(١) ديوان ايليا ابو ماضى ـ الجزء الثانى . مطبعة « مرآة الغرب اليومية » نيويورك سنة ١٩١٩ .

« وايليا ابو ماضى شاعر ، وفى ديوانه هذا سلالم بين المنظور ، وحبال تربط مظاهر الحياة بخفاياها ، وكؤوس مملوءة بتلك الخمرة التى ان لم ترشفها تظل ظمآنا حتى تمل الآلهة البشر فتغمرهم ثانية بالطوفان » .

ويعد هذا الجزء الثانى من الديوان المرحلة الثانية التى مر بها شعر أبى ماضى قبل ان يبلغ شأوه فى (الجداول) الجزء الثالث من ديوانه . والحق ان الشقة بين الجداول والجزء الثانى من الديوان وان كانت أكبر منها بين الجزء الاول والثانى بكثير ، فان ينابيع (الجداول) تبدو فى الجزء الثانى قوية جلية ، ولا سيما فى (فلسفة الحياة) و (لم أجد أحدا) و (ابنة الفجر) وبعض القصائد القليلة الاخرى التى أن أردنا ان نصنف شعر أبى ماضى بحسب قيمته وكيفيته وجب أن ندرجها فى الجداول . وهذا الجزء يمكن ان يعد مظهر الاضطراب الاخير الذى بدأ على شعر أبى ماضى وأسلوبه ، حيث استقر أخيرا متمخضا

عن الجداول التى تلمس فيها خصائص أبى ماضى جلية الخطوط بينة المعالم ، وفلسفته متبلورة ناضجة متخلصة اخيرا من حيرتهــا واضطرابهــا بين المذاهب المختلفــة والاتجاهات المتنوعة ، مهتدية ألى غايتها وسبيلها •

وفى هذا الجزء الثانى ايضا تجد كثيرا من القصائد الوطنية وشعر المناسبات التى خلت منها الجداول تقريبا • ولم يكن ذلك بدعا من الامر ، فقد كان أبو ماضى قريب العهد بوطنــه ، مضطرم الحقــد على الحكومة العثمانيــة وأعمالها هناك ، لذلك ضم ديوانه كثيرا من القصائد الوطنيــة التى يتوجع فيهــا لبلاده ومصيرها ويهــاجم حكومتها الجائرة ويعلن سروره لانكساراتها المختلفة فى قصائده (بنت سوريا) و (بلادى) و (معركة بورغاس) و (الحرب العظمى) و (دموع وتنهدات) و (امة تفنى وانتم تلعبون) و (سقوط ارضروم) و (لمن الديار) و (يا بلادى)

و (فتح أورشليم) عدا الابيات الكثيرة المنثورة فى قصائده الاخرى .

وله عدا هذه الوطنيات (قصائد مناسبات) اخرى قيلت فى الرثاء أو المدح ، كما ان له بعض القصائد التى حاول فيها ان ينظم قصصا شعريا على نحو ما شاع فى ذلك الحين بين بعض الشعراء كشبلى الملاط ومحمد تيمور وغيرهما . وفى هذا الجزء بعض القصائد من هذا القبيل (كبائعة الورد) و (العاشق المخدوع) وسواهما . وله أيضا قصائد تصف بعض المخترعات الحديثة ، كوصف الطيارة وباخرة الاغاثة وما أشبه ، وقد كان هذا الضرب من الوصف شائعا يومئذ بين الشعراء ، كما تشيع الازياء بين النساء ، وكانوا يجنحون اليه ليدلوا به على عصريتهم واتصالهم بالحضارة الغربية .

وهكذا تجد فى الاثنتين والسبعين قصيدة التى

يشتمل عليهـا الجزء الثانى من ديوان أبى ماضى ثمانى قصائد وطنية ، واثنتى عشرة قصيدة مختلفة فى الوصف لا تخلو من غزل ووطنية ايضا ، وست قصائد قيلت فى مناسبات مختلفة كرأس السنة الجديدة وما اشبه وثلاث قصص ، وقصيدتين فى الرثاء ، واثنتين فى المدح أنشدتا فى بعض حفلات التكريم . والبقية التى تبلغ الاربعين قصيدة هى من الشعر الخالص الذى يعبر عن خلجـات الروح ونزوات النفس وأحـاديث المنى ودوال العبر ، منها عشر قصائد ممتازة .

وأسلوب أبى ماضى فى هذا الجزء من ديوانه لا يمكن ان يعد حديثا ولا يمثل فى أغلبه أسلوب المدرسة المهجرية فى بساطتها وموسيقيتها . فهو لم يستطع ان يتخلص فيه مرة واحدة من سيطرة الاساليب الشعرية السائد أوانذاك . ولا ان يخفى تأثره باساليب الشعراء

الذين كان شعرهم ذائعا على الالسنة فى ذلك الحين كالبارودى واسماعيل صبرى وشوقى وحافظ . فترى عنده البحور الطويلة ، والالفاظ القديمة والمطالع التقليدية كمطلع (لمن الديار) :

لمن الديار تنوح فيها الشمأل
ما مات أهلوها ولم يترحلوا

ومطلع (نزوة ألم) :

دعى لومى وقاك الله ما بى
فغير الحر أولى بالعتاب

بل أنت تذكر حيال البعض منها قصائد جاهلية يبدو أبو ماضى محاولا معارضتها او مناظرتها على الاقل كما فى (سقوط ارضروم) :

أعد حديثك عندى ايها الرجل
وقل كما قالت الانباء والرسل

هذا المطلع الذى يورد الى ذهنك فورا مطلع الاعشى:

ودع هريرة ان الركب مرتحل
وهل تطيق وداعا ايها الرجل

أو فى (ما للكواكب ؟) :

شوق يروح مع الزمان ويغتدى
والشوق ان جددته يتجدد

التى تذكرك بمطلع (طرفة) :

لخولة أطلال ببرقة ثمهد
تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

وله قصائد أخرى كثيرة يبدو فيها تأثره بروى بعض القصائد المشهورة . وهذا الاسلوب التقليدى يبدو حتى فى قصائده الغزلية التى فى هذا الديوان ، كما فى (مسرح العشاق) :

من سحر طرفك من مجيرى
يا ضرة الرشأ الغرير

ويلاحظ فى شعر أبى ماضى ، ولا سيما فى هذا الجزء من ديوانه ، نفسه الطويل ، فالبعض من قصائده

يزيد على الخمسين والستين بيتا ، وبعضها يقارب المائة بيت مثل (مسرح العشاق) و (عصر الرشيد) و (بائعة الورد) . وقد لا يكون هذا العدد كبيرا بالنسبة الى شاعر جاهلى او عباسى ، ولكنه جدير بان يلتفت اليه عند شاعر عصرى ، ولا سيما اذا كان من شعراء المهجر . ونحن وان كنا لا ننكر ان أبا ماضى كان يتكلف الاطالة فى البعض منها تكلفا ليجارى ما كان شائعا فى ذلك الحين ، فاننا يجب الا ننسى ان تلك ميزة انفرد بها بين سائر شعراء المهجر ، فيما انفرد به من ميزات . فليس لأحد من شعراء المهجر قصائد فى طول قصائد ابى ماضى ، ولا أحسب ان بينهم من كان يستطيع ان يجاريه فى ذلك لو أراد . واطالة القصيدة ليس مطلبا بذاته ولا أمرا مستحسنا فى الشعر الحديث ، الا انه يمكن ان يتخذ دليلا على قوة (الماكنة الشعرية) لدى الشاعر ، او أصالة ملكة النظم فيه .

والواقع ان أبا ماضى من الشعراء الذين تدرجوا فى الشعر بخطا متتابعة نستطيع ان نقتفى أثرها فى صفحات دواوينه. لذلك لم يكن فى أمكانه ان يتخلص مرة واحدة من التيارات الادبيـة لعصره مهما كان ساخطا عليها .
ولعـل فى هـذا التدرج خصيصة أخرى من خصائص الشاعر التى تعين على فهم شعره ونقده ، فهو قد امتاز بذلك عن زملائه فى المهجر اذ كان أسـلوبهم ، فيمـا نشر لهم ، متسقا فى كل عهودهم تقريبا ، فلا تستطيع أن ترجع قطعة لميخائيل نعيمة او جبران الى العهد الذى قيلت فيه من حياة صاحبها بتلك السهولة التى يمكنك ان ترجع بها قصيدة لابى ماضى . ولعل هذا ان يكون من مظاهر الصدق عند الشاعر .

الجداول

دعى اللاحى وما صنف والقالى وبهتانه
ألْلجدول ان يجرى وللزهرة ان تعبق
وللاطيار ان تشتاق أيار والوانه
وما للقلب ، وهو القلب ، ان يهوى وان يعشق

ظل أبو ماضى فى نيويورك يساهم فى مجهودات الرابطة القلمية ويساعد على تحرير جريدة (رحلة الفتاة) وينشر بين الحين والحين قطعا من شعره الذى ألهته الصحافة عنه ، وقديما كانت الصحافة شاغلا عن الادب ، وكان ايليا أبو ماضى فى تلك الايام قد تزوج من ابنة (نجيب دياب) صاحب جريدة (مرآة الغرب) ومطبعتها فأخذ يحرر فى جريدة حميه ، ثم اصبح رئيسا لتحريرها .

وكان ينشر اكثر شعره فى (السائح) التى كانت

بوق الرابطة القلمية وحلبتها ولا سيما اعدادها السنوية الممتازة . ثم ظهرت له فى مجموعة الرابطة لسنة ١٩٢١ خمس قصائد كان اختيارها موفقا غاية التوفيق، وهى : لم أجد أحدا ، المساء ، نحن ، ابنة الفجر وفلسفة الحياة .

وفى سنة (١٩٢٧) صدرت الجداول فى نيويورك[١] مع مقدمة بقلم ميخائيل نعيمة ، فكانت نقطة تحول فى شعر أبى ماضى وحدثا خطيرا فى أدب المهجر . وفى هذه (الجداول) تظهر عبقرية ايليا أبى ماضى بكل ما فيها من قوة واشراق . وأن الفـارق الذى نلحظه بين الجداول والجزء الثانى من الديوان لا يمكن أن يقاس الى الفارق بين الجزء الاول والثانى منه . ولا ريب فى ان التدرج الذى نزعمه لابى ماضى قد فقد اطراده فى هـذه المرة ،

(١) الطبعة الاولى ، مطبعة مرآة الغرب فى نيويورك سنة ١٩٢٧ ثم أعيد طبعه مرتين مع بعض التغييرات والاضافات . مطبعة الغرى فى النجف سنة ١٩٣٧ ومطبعة الراعى ـ النجف ايضا فى السنة عينها .

وضاعت سرعته عند اقترابه من الذروة ، كالحجر الذى يسقط على الارض ، تتضاعف سرعته كلما أقترب منها. وقد كان هذا ظاهرا فى الجداول بصورة بارزة مما حمل ميخائيل نعيمة على القول فى مقدمتها :

« انى آنس اليوم قرابة روحية ، بينى وبين صاحب الجداول ما كنت أشعر بمثلها بينى وبين ناظم الجزء الاول والثانى من ديوان ايليا أبو ماضى . ترى أتغير أبو ماضى الى هذا الحد فى السنوات الثمانى الاخيرة أم ترانى تغيرت ؟ » .

والحق ان فن أبى ماضى هو الذى تغير ، فبلغت أفكاره نضجها ، وتخلص أسلوبه مما كان يشوبه من تعقيد واضطراب ، فاتحدت ألفاظه البسيطة على بريقها ، بمعانيه الساذجة على عمقها . وان اتحاد الشكل مع الموضوع والتوازن الصحيح بينهما هو فى رأينا أهم أسرار النجاح فى كل عمل فنى ، وذلك ما وفق له أبو ماضى فى هذه الجداول .

خلت (الجـداول) من أغلب نقـاط الضعف التى تؤخذ على الجزء الثانى من (ديوان أبى ماضى) فى ناحيتى الشكل والموضوع . فقـد زال عن لغـة الجـدال ذلك الابتذال وتلك الغلظة التى كانت سائبة فى لغة الديوان ، وتركزت المعانى فى الابيات ، فأقلع الشاعر عن تكلف الاطالة بعد أن تبين له سخفها ، وانه قد يستطيع بأبيات قليلة ان يخلد ما لم يكن ينجح فى أظهاره فى مائة بيت . أما اذا تدفقت عليـه الابيـات بيسر وصفاء ، واستطاع الاطالة فى غير تكلف ولا تصنع ، فذلك ما لا يحجم عنه الشاعر ، وما نزال نجد فى الجداول بعض المطولات . واصبحنا نرى الآن البحور القصيرة المرقصة، والتراكيب البسيطة المكهربة ، والموسيقى الصافية التى ترقرق عليها هذه الجداول مسكرة أخاذة .

وتنقت الجداول من اشعار المناسبات والضرورات ،

الا فى قصيدتين اثنتين قيلتا فى مناسبتين جليلتين ، اولاهما (عيد النهى) التى قيلت فى اليوبيل الذهبى للمقتطف) ، والثانية (موت العبقرى) فى رثاء العلامة سليمان البستانى . ولم نعد نرى فى الجداول قصائد حماسية وطنية . لان أبا ماضى الآن قد تخطى الحدود وسما على النزعات الاقليمية ، ولم يعد لقومه وحدهم ، وانما للانسانية جمعاء ، وأصبح انسانا ساميا تربطه بالناس صلتها القوية قبل كل صلة أخرى ، انسانا ينفذ من الوجود المحسوس الى ما وراءه ، ويجول فى آفاق الكون الواسعة ثم يعود الى الناس راويا لهم ما سمع وما رأى ، واصفا لهم ما أحس وما ادرك . على انه لم يراود الفلسفة الا سببا للشعر لا غاية بنفسها .

والواقع ان أبا ماضى بالرغم من انتسابه الى المدرسة المهجرية والرابطة القلمية فانه ـ كما أشار الاستاذ طاهر

الحميرى والمستشرق كامبفماير (١) - يشذ عن هذه المدرسة ويجب ان يدرس كاستثناء من اتجاهها العام ، ومن هنا كانت طرافة البحث عن ايليا أبى ماضى الذى يمتاز عن تلك المدرسة كلها بفلسفته الخاصة ونظرته الى الحياة ، وانه وان كان فى الامكان رجع هذه الفلسفة الى مصادرها التى استقاها أبو ماضى ، فليس ثمة شك فى ان أبا ماضى قد أسبغ عليهما لونه الخاص وطبعها بطابعه الشخصى الذى تكاد تلمس خطوطه وتتبين معالمه جلية واضحة .

والعلة فى ذلك أن (الرومانتيكية) هى المذهب الذى يمكن ان نرد اليه الادب العربى فى اميركة . وقد ظهرت هذه الرومانتيكية بارزة فى آثار جبران خليل

(١) Leaders in Contemporary Arabic Literature
By: Tahir Khemiri and Prof. Dr. G. Kampffmeyer.
Hamburg 1930.

جبران وميخائيل نعيمة • وقد كان هذان الكاتبان يمثلان أقوى التيارات الادبية فى المهجر ؛ فكان لابد لهما ان يجرفا فى اتجاههما التيارات الصغيرة الاخرى وقد تأثر بهما فعلا أغلب من كان يمارس النظم والكتابة من العرب فى اميركة • فاذا عرفنا ان رومانتيكية جبران ونعيمة كانت رومانتيكية متشائمة حزينة تقدس الكآبة والدموع زالت حيرتنا من طغيان التشاؤم على هذه المدرسة بالرغم من قيامها فى اميركة الضاحكة ، بلاد الحرية والمرح والسعادة ، ومثابة الميكانيكية والمادة • ولا يعزبن عن البال ان للغربة وما تتركه فى نفوس المهاجرين من حزن وحنين أثرا بليغا فى تقوية تلك النزعة • أما أبو ماضى فقد استطاع ، بما عنده من استقلال الفكر ونفاذ البصيرة ، أن يقاوم هذا التيار الجارف ويتخذ لنفسه الرأى الذى يراه والفكرة التى يتوصل اليها • فلم

يقل مع جبران فى يوم مولده :

« فى هذا اليوم تنتصب أمامى معانى حياتى الغابرة ، كأنها مرآة ضئيلة أنظر فيها طويلا فلا أرى سوى أوجه السنين الشاحبة كأوجـه الاموات ، وملامح الآمال والاحلام والامانى المتجعدة كملامح الشيوخ ، ثم اغمض عينى وانظر ثانية فى تلك المرآة ، فلا أرى غير وجهى ، ثم احدق بوجهى فلا أرى فيه غير الكآبة ، ثم استنطق الكآبة فأجدها خرساء لا تتكلم ، ولو تكلمت الكآبة لكانت أكثر حلاوة من الغبطة » .

ولامع ميخائيل نعيمة مخاطبا (دودة) :

تدبين دب الوهن فى جسمى الفانى
وأسعى مجدا خلف نعشى وأكفـانى

فأجتـــاز عمرى راكضـــا متعثرا
بأنقاض آمـالى وأشـباح أشـجانى

وانما كان يسائل الناظرين الى الحياة خلال زجاجة معتمة ، والمتبرمين بها المجتوين محاسنها وطيباتها :

أيهذا الشاكى وما بك داء
كيف تغدو أذا غدوت عليلا

ثم ينصح لهم ان يبسموا للحياة أذا أرادوها ان تبسم لهم ، وان يغمروها صفاء وضحكا ويهتفوا معه فى وجه كل باك حزين بهذا الشطر الذى يمكن ان يكون ملخصا لفلسفة أبى ماضى ونظرته الى الحياة :

« كن جميلا تر الوجود جميلا » .

تلميذ أبيقور

واذا ما أظل رأسك هم
قصر البحث فيه كيلا يطولا

واذا ما وجدت فى الارض ظلا
فتفيأ به الى ان يحولا

بالرغم مما ذكرنا فى الفصل الماضى من التفاؤل الذى يتراءى فى شعر أبى ماضى ، لا يصح أن نلقى القول جزافا ونكتفى بالنظر فى البيت او فى البيتين للحكم على شعر الشاعر كله ، كما فعل كثير من الباحثين الذين خدعوا بالنظرة السطحية يلقونها على شعره عابرين ، فأصدروا أحكاما خاطئة مستعجلة . وانما علينا ان نستعرض جوانب الشاعر كلها ، فلمعظم الشعراء جوانب عديدة قد تختلف بعض الاختلاف او كل الاختلاف .

فما فلسفة أبى ماضى فى الحياة ، وما رأيه فى الموت ؟ أهو متفائل أم هو متشائم ؟ أهو مؤمن أم ملحد أم هو شاك متقلب بين الايمان والالحاد ؟ وما الافكار الفلسفية التى يحملها ومن الشعراء والفلاسـفة الذين تأثر بهـم وظهر أثرهم فى شعره ؟؟

أبو مـاضى (أبيقورى) فى فلسفته (لا أدرى) فى نظرته الى الحياة . فالى أبيقور وجماعة (اللا أدرية) يمكن ان نرد أغلب أفكاره ونظراته ، وان آراء أبى ماضى فى الحياة ومنطقه فيها يوافق كل الموافقة ما قال به أبيقور . وهو بذلك لا يمكن أن يعـد من المتفـائلين ، بل هـو متشائم ايضا ، ولكن على غير طريقة جبران ونعيمـة ، فهو متشائم مرح ، لا ينكر ان الحياة ملأى من الشرور والآلام ، وان الغد مظلم مخيف ، ولكنه يعلم ايضا ان لا مفر له من شرور اليوم ولا من محن الغد ، فليله عن

التفكير فيهما بملاذه ، وليستعن على التخلص من آلامهما
بلهوه ، وليغنم كل فرصة للسرور والمرح متعاميا عما
حوله من شر وعما ينتظره من شر :

أحلم الناس فى الحياة أناس
عللوها فأحسنوا التعليلا
فتمتع بالصبح ما دمت فيه
لا تخف ان يزول حتى يزولا

• • •

أنت للارض أولا واخيرا
كنت ملكا او كنت عبدا ذليلا
كل نجم الى الافول ولكن
آفة النجم ان يخاف الافولا

وكذلك كان أبيقور يرى ان الفرار من الالم خير
من السعى فى تحصيل اللذة ، ونرى هذا الرأى فى أكثر
من موضع من شعر أبى ماضى الذى ينصح بعدم التفكير

فيما نلقى فى الحياة من آلام ، وما يلقانا فيها من هموم ، لان ذلك سيزيدنا هما ولن يجدينا نفعا :

واذا ما أظل رأسك هم
قصر البحث فيه كى لا يطولا

وكذلك :

ان التأمل فى الحيا
ة يزيد اوجاع الحياة

وفى هذه الناحية نرى لابى ماضى شبها آخر بالشاعر الفارسى (عمر الخيام) الذى يمكن أن يعد هو ايضا من أكبر تلاميذ أبيقور . ويبدو أثر رباعيات الخيام فى شعر أبى ماضى واضحا فى غير موضع . كقصيدة (تعالى) التى يقول فيها :

يريد الحب ان نضحك فلنضحك مع الفجر
وان نركض فلنركض مع الجدول والنهر
وان نهتف فلنهتف مع البلبل والقمرى
فمن يعلم بعد اليوم ما يحدث او يجرى

وكذلك فى قصيدته (الطين) :

نسى الطين ساعة انه طيـ
ـن حقير ، فصال تيها وعربد
ايها الطين لست أنقى وأسمى
من تراب تدوس او تتوسد

أو فى قوله :

انا كالصهباء لكن
انا صهبائى ودنى
أصلها خاف كأصلى
سجنها طين وسجنى

فهذه الابيات ، وغيرها كثير ، تذكر برباعيات للخيام مشهورة جدا .

وكذلك يظهر أثر (أبيقور) فى فلسفته العلمية ، فأبيقور لم يقدر من فروع الفلسفة الا ما يبحث فى الاخلاق ومعيارها ، لان الفلسفة عنده كانت سبيلا

تؤدى الى غاية وراءهـا هى الحياة العملية ، وأبو ماضى يقول :

كل نجم لا اهتـــداء به
لا ابـالى لاح او غربـــا
كل نهر لا ارتواء بـــه
لا ابالى ســال او نضبــا

وقد كان أبيقور لا يجيز للانسان ان يرضى لنفسه الذل والهوان من كائن من كان ، بل لا يرضاهما من الحياة نفسها ، فان لم يكن بد من الذل مع الحياة جاز للانسان أن يطلق الحياة مختارا • وترى مثل هذا الاباء ظاهرا بأجلى صوره فى شعر أبى ماضى الذى كان يتعشق الحرية ويتغنى بها ، ويشير اليها فى كل مناسبه ، فيقول فى قصيدته (أنا) :

حر ومذهب كـل حر مذهبى
ما كنت بالغـاوى ولا المتعصب

انى لاغصب للكريم ينوشه
من دونه والوم من لم يغضب

وكذلك فى (بلادى) :

ولم أر كالضمير الحر فخرا
ولم أر كالضمير العبد ذاما
واجفو القصر يلزمنى هوانا
وأهوى العز يلزمنى الحماما

وكذلك فى (العليقة) :

صنت عنها حر وجهى فتصدت لثيابى

ويؤمن ايليا أبو ماضى بتساوى الناس فى الواقع كتساويهم فى نظر الطبيعة التى لا تفرق بين أمير وشحاذ ، فيقول فى (العليقة) عندما يصفها :

ربضت فى الغاب كاللص لفتك واستلاب
تقطع الدرب على الفلاح والمولى المهاب

ويعبر عن ذلك فى (الطين) ايضا ، فيقول مخاطبا الغنى المختال :

فلك واحد يظل كلينـــا
حار طرفى به وطرفك ارمد
قمر واحد يطل علينـــا
وعلى الكوخ والبناء الموطد
انت مثلى من الثرى واليـه
فلماذا يا صاحبى التيه والصد
ان طير الاراك ليس يبـالى
انت أصغيت أم أنا ان غـرد

ولكنه مع ذلك يبدو أحيانا كالساخط على الطبيعة لانهـا تعمى عما بين الناس من فروق خليقة بالتفريق ، وان كان ذلك ليس ينقص من أقدارهـم ولا يزيـد فيهـا ، فيقول :

قد يصير الشوك أكليلا لملك او نبى
ويصير الورد فى عروة لص او بغى

أما (لا أدريته) فتظهر بصورة خاصة فى (الطلاسم) ، وهى قصيدة مطولة ، وان شئت فسمها ملحمة ، تتألف من

واحد وسبعين مقطعا ينتهى كل منها بقوله (لست أدرى) ، ويسائل فيها الشاعر عن مسائل الوجود ، من أين جاء ، وكيف جاء ، والى اين المصير ؟ وما الحيـاة ، وما الموت وهل للتوصل الى كنههما من سبيل ؟ وما الدين ، وهل تراه يهدى الى الحقيقة ، واين الحقيقة ، وهل تراها تعرف يوما ؟ وما القلب وما الروح ، وما الحب وما البغض ، وما الايمان وما الالحاد ، وما الجمال وما القبح ، وهل لهمـا مقيـاس ؟ وما الخير وما الشـر ، وكيف يمكن التمييز بينهمـا ؟؟ .

اسئلة وشكوك ما برحت منـذ القديـم تجرى على ألسنة الفلاسـفة ، وتخامر نفوس المفكرين ، ولكن أبا ماضى جاوز فى شكوكه الحد الذى وقف عنده الفلاسفة حتى أوشك أن ينكر ذاته او أنكرهـا . على انه عرف كيف يضفى على كل ذلك وشاحا من الشاعرية الرائعة :

اترانى كنت يومـــا

نغمـــا فى وتـــر ؟

ونحن اذا كنا نتوصل الى فلسفة الشاعر ومذهبه بأن نستنتجها من شعره استنتاجا ، فنحن هنا نجدها واضحة صريحة يقر بها الشاعر واحدا وسبعين مرة ، والاقرار ـ كما يقول رجال القانون ـ سيد الادلة . بل نحن نجد فيها أحيانا مبادىء اللاأدرية ينقلها الشاعر نقلا قاصدا ، فقد أثر عن (Arcesilaus) مثلا وهو احد الفلاسفة الذين ترأسوا (أكاديمية افلاطون الحديثة) قوله « لست أدرى ، ولست أدرى اننى لا أدرى » وتجد فى الطلاسم مقطعا يكاد يكون ترجمة لهذا القول :

أترانى قبلما أصبحت انسانا سويـا

كنت محوا او محالا ام ترانى كنت شيا

ألهـذا اللغز حـل ام سيبقى ابديـا

لست أدرى . . ولماذا لست أدرى ؟

لست أدرى !

لابى ماضى

الحكاية الازلية

توطئة

كان زمان ، لم يزل كائنا   وحالة ، ما برحت باقيه
مل بنو الانسان اطوارهم   وبرموا بالسقم والعافيه
فاستصرخوا خالقهم واشتهوا   لو انه كونهم ثانيه
وبلغت اصواتهم عرشه   فى ليلة مقمرة صافيه
فقال : انى فاعل ما اشتهوا   لعل فيه حكمة خافيه
وشاهدوه هابطا من عل .   فاحتشدوا فى السهل والرابيه
من القرى الكئيبة العارية   والمدن الضاحكة الزاهيه
تألبوا من كل صوب كما   تجتمع الامطار فى الساقيه
يسابق الصعلوك رب الغنى   والابله الباقعة الداهيه
ويدفع الشيخ التوى عوده   وصار مثل الرمة الباليه
فتى مضى الفجر ولما تزل   روعته فى وجهه باقيه
وتزحم الحسناء ممكورة   خلابة كالروضة الحاليه
دميمة تشبه فى قبحها   مدينة مهجورة عافيه
فقال رب العرش : ما خطبكم ،   ما بالكم صرخاتكم عاليه ؟
هل اصبحت ارضكم عاقرا   ام غارت الانجم فى هاويه ؟
ام اقلع الماء فلا جدول   وماتت الطير فلا شاديه ؟

أم فقدت اعينكم نورها ام غشيت ارواحكم غاشيه ؟
اين الهوى ، ان لم يكن قد قضى فكل جرح واجد آسيه

الفتى

قال الفتى : يا رب ان الصبا مصدر احزاني وآلامي
البستنيه مونقا بعدما أبلاه اخوالي واعمامي
وصار في مذهبهم عصره فترة زلات وآثام
فاختلفت حالي وحالاتهم كأنني في غير اقوامي
وصرت كالجدول في فدفد او شاعر ما بين اصنام
والاخضر المورق في يابس او مثل صاح بين نوام
دنياهم دنياي . لكنما اعلامهم ليست كأعلامي
عندهم الروضة اشجارها والروض عندي الزهر النامي
والطير لحم ودم عندهم وليس عندي غير انغام
سكري بها او بالندى والشذى وسكرهم بالخمر في الجام
يسخر قلبي بلياليهم ويسخر الدهر بايامي
كأنني جئت لتبكيتهم كأنما جاؤا لا يلامي
عبء على نفسي هذا الصبا الجائض المستوفز الطامي
يزرع حولي زهرات المنى وشوكها في قلبي الدامي
فان . له في كل فان هوى فان . ولا ينجو من الذام
خذه . وخذ قلبي واحلامه فأنني اشقى باحلامي
ومر يمر الدهر في لحظة كالطيف . او كالبرق قدامي
وازرع نجوم الشيب في لمتي فينجلي حندس اوهامي
وابصر الحكمة في ضوئها اني اليها جائع ظامي

الشيخ

وجاء شيخ حائر واجف ... مشتعل اللمة بالى الاهاب
كأنما زلزلة تحته ... لما به من رعشة واضطراب
فصاح : يا رباه خذ حكمتى ... واردد على عبدك عصر الشباب
ان امانى الروح ازهارها ... وان روحى اليوم قفر يباب
لا جدول لا بلبل منشد ... بلى . بها الوحشة والاكتئاب
تلك الامانى – على كذبها ... لم تكن اللذة فيها كذاب
زالت وما زلت . وان الشقا ... ان تطمس الآى ويبقى الكتاب
وتسلب السرحة اوراقها ... ولم تزل اعراقها فى التراب
قيل لها فى البحر كل المنى ... فلم تجد فى البحر الا الضباب
كنت غنيا فى زمان الصبا ... وكنت صفر الكف صفر الوطاب
صحوت من جهلى فابصرتنى ... كأننى سفينة فى العباب
نأت عن الشط ولم تقترب ... شبرا من السر الذى فى الحجاب
ولو ترجى اوبة لاشتفت ... لكنما عز عليها الاياب
مر تقف الايام عن سيرها ... فانها تركض مثل السحاب
وضع امامى لا ورائى ، المنى ... وطول الدرب وزد فى الصعاب
ما لذتى بالماء اروى به ... بل لذتى فى العدو خلف السراب

الحسناء

وقالت الحسناء : يا خالقى ... وهبتنى الحسن فاشقيتنى
وجهى سنى مشرق انما ... مرعى عيون الخلق وجهى السنى
حظى منه حظ ورد الربى ... من عطره الفواح والسوسن

ومثل حظ السرو من فيئه والطير من تغريدها المتقن
ومثل حظ النجم من نوره فى الحندس المعتكر الادجن
للقائل الفيء . وللسامع التغريد . والزهرة للمجتنى
والنور للمدلج والمجتلى والدر للغائص والمجتنى
كم ريبة دبت الى مضجعي مع الجمال الرائع الممكن
ان عشقت نفسي فويل لها والويل لى ان رجل حبنى
السم والشوك وجمر الغضا اهون من كاشحة الالسن
كم تقتفينى نظرات الخنا ويلى من خائنة الاعين
لم يبق فى روحى موضع يا رب لم يخدش ولم يطعن
ان الغنى فى الوجه لى آفة فليت انى دمية ليتنى

الجارية

وسكتت • فصاحت الجارية باكية من بؤسها شاكيه :
ذنبى الى هذا الورى خلقتى فهل انا المجرمة الجانيه ؟
ان اخطأ الخزاف فى جبله الـ طين فاى ذنب للآنيه ؟
أليس من يسخر بى يزدرى بالقوة الموجدة الباريه ؟
لو كنت حسناء بلغت العلى فللجمال الرتبة العاليه
وبات من اسجد قدامه صاغرة يسجد قداميه
فاننى فى ملأ ظالم احكامه جائرة قاسيه
ليس لذات القبح من غافر وفيه من يغفر للزانيه ،
نفسى جزء منك يا خالقى وانها عاقلة راقيه
أليس ظلما وهى بنت العلى ان تك بالقبح اذن كاسيه ؟
فليكن الحسن رداء لها ترفل به او فلتكن عاريه

الصعلوك

واقبل الصعلوك مسترحما … فى مقلتيه شبح اليأس
يصرخ يا رباه حتى متى … تحكم الموسر فى نفسى
وتضع التاج على رأسه … وتضع الشوك على رأسى
يشرب اللذات من كأسه … واجرع الغصات من كأسى
وتنجلى الشهب فى ليله … ضاحكة كالغيد فى عرس
ويتوارى فى نهارى السنا … او يتبدى حانق الشمس
يا رب لا تنقله عن انسه … وانما انقلنى الى الانس
فان تشأ ان لا يذوق الهنا … قلبى فجردنى من الحس
لو لم يكن غيرى فى غبطة … ما شعرت روحى فى البؤس

الغنى

وقال ذو الثروة : ما اشتهى … لا اشتهى انى ذو ثروة
انفقت ايامى على جمعها … وخلتنى ادركت امنيتى
فاستعبدتنى فى زمان الصبا … واوقرت بالهم شيخوختى
قد ملكتنى قبلما حزتها … وملكتنى وهى فى حوزتى
كنحلة امسكها شهدها … من الجناحين فلم تفلت
حسبتها تكسبنى قوة … فافترست قوتها قوتى
جنت على نفسى واحلامها … جناية الشوك على الوردة
ينمو فتذوى فهى عليقة … يحذرها الطائف بالروضة
من قائل عنى لمن خالنى … امرح من دنياى فى جنة
لا تنظر الاضواء فى حجرتى … وانظر الى الظلماء فى مهجتى

ولا يغرنك قصرى فما ... قصرى سوى سجن لحر
انى فى الصرح الرفيع الذرى ... كطائر – فى قفص –
كم فى عباب البحر من سابح ... قد مات ظمآنا الى قط
موت الطوى شر ولكنها ... افضع منه الموت بالتخ
ان سهر العاشق من لوعة ... او سهر المحزون من كر
فالشوق كالحزن له آخر ... وينقضى فى آخر الم
اما انا فقلقى دائم ... ما دمت فى مالى وفى ف
والخوف من كارثة لم تقع ... امض من كارثة حل
كم من فقير مر بى ضاحكا ... كأنما يسخر من غ
رأيته بالامس من كوتى ... فخلتنى انظر من ه
وكنت كالحوت رأى موجة ... ضاحكة ترقص كالطفل
او حية تدب فى منجم ... ترنو الى فراشة ح
قد اختفت ذاتى فى بردتى ... فما يرى الخلق سوى بر
فهم اذا ما سلموا سلموا ... على خيوط البرد والجب
رباه اطلق من عقال الغنى ... روحى فانى منه فى م
وانزع مع الدينار من قبضتى ... صلابة الدينار من س
وحول المال الى راحة ... وحول القصر الى خي

الابله

وصرخ الابله مستفسرا ... ما القصد من خلقى كذا والمرا
الم يكن يكمل هذا الورى ... الا اذا اوجدتنى فى فسا
لى صورة الناس وحاجاتهم ... من مطعم او مشرب او رق
لكن لبى غير البابهم ... فانه مكتنف بالس
يعجزنى ادراك ما ادركوا ... كأن عقلى فحمة او رم

كنت انسانا فلم يا ترى لست بادراكى كباقى العباد ؟
لم اكن منهم فمرنى اكن جرادة او ارنبا او جواد ،
ند لا يعدم مع نده ذريعة للسلم او للجهاد
تسخر النملة من نملة وليس يزرى بالقراد القراد
انت كالعقل على رغمة ينمو مع الحنطة فيه القتاد

البافعة

جاء بعد الابله المستريب الالمعى العبقرى اللبيب
ال : انى تائه حائر انا غريب فى مكان غريب
حث عن نفسى فلا اهتدى وليس يهدينى اليها اريب
ا عليم حيث لا عالم انا لبيب عند غير اللبيب
انني كنت بلا فطنة سرت ولم تكثر امامى الدروب
كان عقلى كعقول الورى وكان قلبى مثل باقى القلوب
صار عندى كالنجوم الورى فلا عدو فيهم او حبيب
لم أر فى ضحكهم والبكا شيئا سوى الضحك وغير النحيب
لم اسائل كوكبا طالعا مالك تبدو ، ولماذا تغيب
لم اقف فى الروض عند الضحى يذهلنى لون وشكل وطيب
ولم اقل ما كنت من قبلما كنت ، ولا ما فى سجل الغيوب ،
ما العقل يا رب سوى محنة لولاه لم تكتب على الذنـ

الخاتمة

وعى الله شكايا الورى ... قال لهم : كونوا كما تشتهـ

استبشر الشيخ وسر الفتى ... والكاعب الحسناء والحيز

كنهم لما اضمحل الدجى ... لم يجدوا غير الذى كـ

م حددوا القبح فكان الجمال ... وعرفوا الخير فكان الطـ

وليس من نقص ولا من كمال ... فالشوك فى التحقيق مثل الا

ذرة الرمل ككل الجبال ... وكالذى عز الذى هانـ

متعهد التوزيع : مكتبة عبدالكريم زاهد .